مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163 -1112 العدد 15 (2011) : 75 - 87
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

قبائل الملثمين الصحراوية ودورها في التمهيد لقيام الدولة المرابطية

عبد الجليل ملاخ
قسم العلوم الإنسانية المركز الجامعي لغرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

تعتبر صحاري العالم مظهر طبيعي من مظاهر اليابسة على وجه سطح الأرض، وتأخذ ما نسبته 8.26% من مجموع المساحة القارية، أي ما يناهز 18.3م/كلم[2] ويقع أغلبها على امتداد مدار السرطان (15°–25°) شمال خط الاستواء، ويقابلها في الجهة الجنوبية على امتداد مدار الجدي (15°–25°) جنوب خط الاستواء، وصحاري العالم متنوعة، فمنها الساحلية (صحراء أتاكاما في الشيلي)، والداخلية (صحراء جوبي في منغوليا)، وظل المطر (باتاجونيا في الأرجنتين)، والصحاري شبه الاستوائية (كالا هاري في جنوب إفريقيا، صحراء أستراليا، والصحراء الكبرى في شمال إفريقيا)[1] وتعد الصحراء الكبرى أكبر صحاري العالم بمساحة تناهز 7.770.000 كلم[2]، وتأخذ المنطقة العربية منها أكبر جزء، فهي تمتد من نهر النيل (شرقا)، إلى المحيط الأطلسي (غربا)، وأختلف في حدود شمالها بين سلسة جبال الأطلس وبين من أوصلها لسواحل البحر المتوسط (مرسى مطروح وبنغازي على ساحل المتوسط)، وكذلك أختلف في جنوبها (نهر السنغال، وهضاب النيجر، السودان)[2]

وقد شكلت الصحراء الكبرى خلال مراحلها التاريخية خاصة الإسلامية (الوسطى)، همزة وصل ونقطة التقاء بين شمال القارة الإفريقية (المغرب الإسلامي) وبلاد السودان (إفريقيا جنوب الصحراء) خاصة فيما عرف بتجارة القوافل وما نتج عنه من انتشار للإسلام، وتبادل للثقافات.

ونحن في مداخلتنا هاته سنركز جغرافيا على الجزء الغربي للصحراء الكبرى، وتاريخيا على العصر الوسيط الإسلامي (خاصة ½ الأول من ق5هـ/11م)، واثنيا على قبائل صنهاجة الجنوب (الملثمون)، طارحين الإشكاليات التالية: هل شاركت الصحراء الكبرى في المشهد السياسي الذي عرفه المغرب الإسلامي، أم أنّها بقيت دائما تابعة له أو لغيره من الممالك الإفريقية؟ مما تتكون القبائل المتلثمة، وأين نجد أهم مضاربهم؟ أين يكمن دور قبائل الملثمين في قيام الدولة المرابطية؟

عرف الجزء الغربي من بلاد المغرب الإسلامي ولأول مرّة، قيام دولة قوية في جنوبه

الصحراوي، سمتها المصادر التاريخية بالدولة المرابطية (454-541هـ/1062-1147م)[3] وقد توسعت هذه الدولة في اتجاه الشمال حتى وحّدت جل أجزائه الغربية، ثم تعدتها للأندلس الواقعة في الجزء الاروبي، كما توسعت جنوبا في غرب إفريقيا جنوب الصحراء، ناشرتا الإسلام في أغلب ربوعه، وقد كان لعاملي الدين (الرغبة في تصحيح ونشر العقيدة الصحيحة) والقبيلة (عصبية قبائل الملثمين) دور كبير في هذا القيام.

I- قبائل الملثمين (صنهاجة الجنوب):

إنّ الدارس لتاريخ الغرب الإسلامي عموما يجد أنّ أغلب الدول المستقلة التي قامت على ترابه قد اعتمدت على قبيلة من قبائله المنتشرة في ربوع أراضيه، فالرستميون (160-296هـ/777-909م) مثلا اعتمدوا على زناتة، والفاطميون (297-361هـ/910-972م) على كتامة ثم صنهاجة الشمال، والموحدون (541-668هـ/1147-1269م) على مصمودة، والمرابطون على صنهاجة الجنوب (الملثمون) (454-541هـ/1062-1147م)...الخ، وسأتناول في مداخلي هاته باختصار قبيلة صنهاجة من حيث أصولهم، وفروعهم، ثم سبب تسمية صنهاجة الجنوب بالملثمين. فمؤرخ البربر عبد الرحمن بن خلدون يعتبر قبائل صنهاجة من أوفر قبائل البربر، ولا يكاد قطر من أقطار بلاد المغرب يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم البعض أنّهم ثلث أمم البربر[4] كما ذكر ابن خلدون بأنّ نسابة البربر يعتبرون صنهاجة فرع من البربر البرانس (برنس بن بر) وليسوا من البتر (أبناء مادغيس)، ثم اختلفوا في أصولهم بين من عدّهم من جذور بربرية، وبين من اعتبرهم عرب ينتسبون لحِميَر إلاّ أنّهم بحكم استقرارهم القديم بجوارهم قد تبربروا، فصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير[5] خرجوا من اليمن وارتحلوا إلى الصحراء كما يذكر الطبري وابن الكلبي. وكما اختلفت المصادر في أصلهم، نجدهم قد اختلفوا أيضا في سبب تسميتهم بصنهاجة، فنسبهم البعض لصناك (صنهاج) بن بر بن صوكان بن منصور، والبعض الآخر لصنهاج بن المثنى بن منصور، وقيل لصنهاج بن عاميل بن زعزاع[6]

وذكر صاحب الروض ناقلا عمن سبقه بأنّ الملك إفريقش بن أبرهة...بن عبد شمس بن وائل بن حمير لما بني مدينة إفريقية وأنزل العرب منازلهم في المغرب ترك فيه قبيلتان من دهاته هما صنهاجة وكتامة، وهما من البربر إلى اليوم[7] بمعنى أنّ كتامة وصنهاجة أصولهما عربية مقارنة ببقية القبائل الأخرى.

في حين يرى آخرون أنّ أصلهم بربري، ذكر صاحب الإستقصاء "لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطي مغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنّهما عريقتان في البربر"[8]

تنقسم قبيلة صنهاجة لطبقتين هما:

(1) الطبقة الأولى: وهم صنهاجة الشمال، وقد كانت لهم دول سياسية كبطن تلكاتة الذي أنجب الدولتين الزيرية (361-543هـ/972-1148م) نسبة لزيري بن مناد رغم أنّ مؤسسها هو ابنه بلكين، والحمادية (408-547هـ/1017-1152م) نسبة لحماد بن بلكين بن زيري، والمتفرعة من الدولة الزيرية[9].

(2) الطبقة الثانية: هم صنهاجة الجنوب والمعروفين في كثير من المصادر بالملثمين، كابن خلدون الذي كتب في عبره "هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب... واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم"[10] وهذه الطبقة هي التي جابت الصحراء الكبرى منذ القدم حتى وصلت حدود بلاد السودان الغربي.

فروع قبيلة صنهاجة متعددة، تصل لسبعين قبيلة، كلمتونة، جدالة، مسوفة، جزولة، وهم الأشهر ولمطة، ترغة، ومداسة وغيرهم[11] وكلهم كانوا قد شاركوا في قيام الدولة المرابطية أو إلتحقوا بها فيما بعد.

عرفت صنهاجة الجنوب باللثام في كثير من المصادر والمراجع، وعدّ اللثام الذي يرتدونه شعارا يميزهم عن بقية القبائل الصحراوية الأخرى، ولما قامت الدولة المرابطية وهم زعمائها وسواعد قوتها، تحولت تسميتهم من الملثمين إلى المرابطين[12] نسبة لرباط عبد الله بن ياسين الجزولي، وإن كان البعض قد خصص قبيلة لمتونة باللثام دون غيرها كالدكتور حمدي عبد المنعم[13] وربما يعود ذلك إلى أنّ الزعامة والسيادة كانت في يد قبيلة لمتونة كما سنعرف، فهي التي أنجبت أبو عبد الله بن تيفات موحد قبائل صنهاجة الصحراء، وأميري المرابطين يحي بن عمر وأخوه أبو بكر اللمتونيين، ويوسف بن تاشفين المؤسس السياسي الحقيقي للدولة المرابطين، ثم عمم اللثام على جميع من حالفها ودخل تحت سيادتها من بقية القبائل الصنهاجية.

ذكر البكري بأنّ جميع قبائل صنهاجة الصحراوية يلتزمون النقاب وقد مرّ بهم سنة 460هـ، ووصفه بأنّه فوق اللثام، أي أنّه يغطي الوجه كله، ولا تبدوا إلاّ محاجر العينين[14] وقد تميّز ملثمو صنهاجة عن بقية قبائل المناطق الصحراوية بما فيها العربية أنّ لثامهم يلبس في كل الأوقات سواء كان الجو حار أو معتدل أو بارد، وفي الليل أو النهار، أثناء العمل أو الراحة، بل ينامون به ويستيقظون، بل أنّ الرجل منهم لا يعرف إلا إذا تلثم وحتى في المعارك والحروب عندما يقتل احدهم فإنّهم لا يعرفنه إلاّ إذا ردوا عليه لثامه، في حين نجد أنّ القبائل الصحراوية الأخرى تستعمل اللثام لأحد العوامل سابقة الذكر[15] ويذكر ابن عبدون أنّ اللثام لا يلبسه إلاّ الصنهاجيون، وإذا تلثم غيرهم فيكون بلثام مغاير لهم حتى يعرف كالعبد مثلا[16] وبهذا استقر اللثام في قبائل صنهاجة، ولعلنا نورد فيما يلي الأقوال المتعددة التي حاولت تحديد أسباب تسمية قبائل صنهاجة بالملثمين، والتي منها:

– خدعة حربية استعملها الحميريون في مواجهة عدوهم الذي كان يغير عليهم كلما غفلوا أو خرجوا من بيوتاتهم، حيث أمروا مرّة نسائهم للخروج واستقروا هم في بيوتاتهم ولبسوا لثام النساء، ولما وصل العدو ضانا أنّ الملثمين نساء قاموا إليهم وقضوا عليهم[17] فحافظوا على التلثم ولازموه تبركا بالظفر الذي حققوه، وذكر ابن خلكان بأنّ شيخه عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير كتب بأنّ قبيلة لمتونة أغارت على عدو لهم، ولما تحالفت مع عدوها وهو قادم للإغارة عليها، أمر الشيوخُ الباقون النساءَ لما تأكدوا من أنّه عدوهم بأن يرتدين لباسَ الحرب ويتلثَّمَنَ، فخشي الأعداء على أنفسهم وقالوا، نحن نتوجه لأخذ الإبل والغنم، فإن لحقوا بنا تقاتلنا وإن لم يلحقوا بنا نكون قد غنمنا، وبينما هم كذلك حتى رجع أبناء القبيلة ففر الأعداء بعدما ألحقوا بهم الهزيمة، وهكذا اتخذوا اللثام سنة يلازمونه وارتقى عندهم إلى مستوى رفيع فى حياتهم وأعرافهم، ولازموه حتى أصبح لا يعرف الشاب منهم من الشيخ، و كان يلبس ليلا ونهار[18]

– ذكر صاحب الحلل الموشية أنّ أحد ملوك التبابعة كان ذو فضل وغلبة حتى أنسى جميع الأمم في من كان قبله، وأنّ هذا الملك قد أخبره الأحبار بأنّ رسولا سيبعث لجميع الأمم، وأنّه خاتم الأنبياء والمرسلين، فآمن به وبرسالته قبل مجيئه، وأعلم أهل اليمن به، ولكن لم يؤمن بما جاء به إلاّ طائفة من قبيلته حمير، وكان قد قال في النبي الذي سيبعث: شهدت على أحمد أنّه رسول من الله بارى النسم

فلو مد عمري إلى دهره لكنت وزيرا له وابن عم.

ولما هلك هذا الملك غلب أهل الكفر على أهل الإيمان، وقاموا بالقتل والتشريد لكل من تبع هذا الملك، فعند ذلك تلثم المؤمنون كما تتلثم النساء في ذلك الزمان، وفروا بأنفسهم حتى وصلوا المغرب الأقصى، وصار اللثام زيهم الذي أكرمهم الله به، ونجاهم لأجله من عدوهم[19]

– لفوائده الصحية التي تقي الصحراوي من الغبار والحر والبرد، وقد كان الخاصة من حمير يتلثمون لشدة الحر أو البرد ثم تلثم عامتهم[20]

– تحول اللثام بالعادة الطويلة إلى عقيدة راسخة لدى الرجال بضرورة لبسه[21]

– إن أجدادهم مِن حِمْيَر كانوا يتلثمون لشدة الحرِّ، ويذهب إلى هذا الرأي مَن ظنَّ إن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى العرب الحِميَريين[22].

– ومما قيل في اللثام مما أورده ابن خلكان والناصري:

قَوم لهم درك العلا في حمير وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحْرَازَ كُلَّ فضيلة غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا[23]

II- مواطن قبائل الملثمين:

تنتشر قبائل الملثمين حسب المصادر من غدامس الواقعة جنوب طرابلس (شرقا) حتى المحيط الأطلسي (غربا) وذلك في المناطق الصحراوية التي تلي سلسلة جبال درن (شمالا)، وتنزل جنوبا حتى مصب نهر السنغال وجزء من منحى النيجر، وإلى الشرق منهم تصل مضاربهم حتى مدينة تادمكة (جنوبا)، وقد ذكر ابن أبي زرع بأن مضاربهم من القبلة (الشرق) إلى الغرب مسيرة سبعة أشهر، ومسيرة أربعة أشهر عرضا[24]، ولمّا تدخل مضارب الملثمين تجد كل قبيلة لها مجالها الجغرافي الذي تتحرك فيه، فقد قيل مثلا أنّ مضارب قبيلة لمتونة تمتد مسيرة شهرين طولا وعرضا، وكانت مدينة أركى حصن لمتونة ومعقلها، بل وسيطرت على الطريق التجاري الهام الذي يحاذي الساحل المحيط، وكذا بالقرب من طريق القوافل سجلماسة–غانة، لذا كانت لمتونة أكبر قبائل الملثمين عددا ووفرة للمال ونالت بذلك رياسة صنهاجة الصحراء عموما، وفي الجنوب منها نجد قبيلة جدالة وتعد الأقرب إلى بلاد السودان، وكانت مدينة أوليل مركزها وهي التي اشتهرت بالملح الذي تنقله القوافل شمالا وجنوبا، أمّا مسوفة فقد كانت مضاربها قاحلة إذ حصرت بين سجلماسة في الشمال وأودغشت في الجنوب لأنها كانت تتحكم في التجارة المارة بين المنطقتين سجلماسة واودغشت[25] هذه المضارب الموغلة في الصحراء الكبرى جعلت المنطقة تحافظ على نمط معيشتها من دون تدخل القوى الخارجية فيها كثيرا.

III- دور الملثمين في قيام الدولة المرابطية:

وصل الإسلام إلى مضارب صنهاجة اللثام في عهد عقبة بن نافع، لكنه لم يستقر في قلوبهم حتى قيام الدولة الإدريسية، ثم تشكل حلف ضم قبائل صنهاجة في ق 3هـ/9م بقيادة قبيلة لمتونة وزعيمها حينها يتلوتان بن تلاكاكين (ت222هـ)، هذا الزعيم الذي استطاع أن يتحكم في الصحراء ويرفع لواء الجهاد حتى دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان يؤدون له الجزية، وبعد وفاته خلفه أحفاده ولكن حلف صنهاجة ضعف وتفكك سنة 306هـ عندما قتل أشياخ صنهاجة تميم بن الأثير بن فطر بن يتلوتان بن تلاكاكين، وتفرقت كلمتهم[26].

في الوقت الذي انفك فيه عقد الملثمين وبروز خطر مملكة غانة في الجنوب، والقبائل الزناتية في الشمال، وبروز الدولة الشيعية الإسماعيلية الفاطمية (في بلاد المغرب) والخلافة السنية الأموية (في الأندلس) على الساحة السياسية، تجدد الحلف الثاني للملثمين في حوالي 350هـ بزعامة لمتونة دائما، ثم ما لبث أن ضعف هو أيضا، ثم تجدد حوالي 424هـ بزعامة أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتارشتا اللمتوني (أبو عبيد الله بن تيفاوت، أبو عبد الله بن نارشت اللمتوني) وهو زعيم قبيلة لمتونة، ولما توفي في مواجهته لملك غانة ببلاد السودان، تخلت لمتونة عن الزعامة وخلفه صهره (حسب ابن أبي زرع) يحي بن إبراهيم الجدالي زعيم قبيلة جدالة سنة 424هـ[27]

وبعد هذه اللمحة المختصرة للملثمين قبل قيام الدولة المرابطية نأتي على دورهم الممهد لقيام الدولة، وهي المرحلة التي سبقت بقليل مرحلة الدعوة وعاصرتها، أي منذ خروج أمير الملثمين يحي بن إبراهيم الجدالي للحج وفي نيته أيضا جلب فقيه يعلم قومه أمور دينهم، حتى تولية يوسف بن تاشفين اللمتوني أمر المرابطين ونزول أبو بكر بن عمر اللمتوني لمواصلة الجهاد في الصحراء وبلاد السودان الغربي.

ولتسهيل دور الملثمين في هذه المرحلة، لا بأس بأن نختار بعض المحطات الهامة في مسار قيام الدولة، ومنها نبرز دور الملثمين فيها، وهي:

1- دور أمير الملثمين يحي بن إبراهيم الجدالي: سبق وأن ذكرنا بأنّ هذا الأمير قد خلف أبو عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني على إمرة صنهاجة الجنوب، ويعتبر الشيخ يحي واضع النواة الأولى لفكرة وحدة الملثمين والتي لن تكون على أساس اقتصادي (طريق القوافل التجارية تمر بمضاربهم)، أو سياسي (الدفاع المشترك ضد العدو خاصة من ممالك السودان الغربي) كما كانت من قبل، وإنّما ستكون على أساس ديني إسلامي، ومعه بقية الأسس الأخرى، خاصة وأنّ الأمير قد رأى الجهل والطبقية التي استشرت في قومه، فترك يحي ابنه إبراهيم على رأس صنهاجة وقصد الحج والتعلّم والتفقه سنة 429هـ على الأرجح، وفي نيته العودة بداعية يثق فيه يعلم الملثمين أمور دينهم ويوحد صفوفهم، وأثناء رجوعه من الحج دخل القيروان مركز فقهاء المالكية والمنتصرين على علماء ودعاة الشيعة الإسماعيلية قدم الأمير طلبه لفقيه القيروان المالكي أبو عمران الفاسي، ولما نظر الأخير في حال الأمير واختبره في أمور دينه وجده لا يفقه شيئا إلاّ أنّه صحيح النية والعقيدة واليقين، وبعد الحوار معه ثم مشاورته لطلبته لم يجد من تتوفر فيه الشروط ويصلح لهذه المهمة كإلمامه بلغة البربر وتحمل فيافي الصحراء، فبعث بكتاب يحمله الأمير يحي لتلميذه في سجلماسة الفقية وجاج بن الزلو اللمطي ليختار أحد طلبته لهذه المهمة[28] فالفكرة من خلال هذه الوقائع التاريخية كانت صنهاجية ولقيت الدعم من شيخ المالكية في القيروان أبو عمران الفاسي.

2- دور الفقيه وجاج بن الزلو اللمطي: لما إطلع الفقيه وجاج على كتاب شيخه أبو عمران الفاسي المرسل له عن طريق زعيم الملثمين يحي بن إبراهيم الجدالي في شهر رجب 430هـ، فكر الفقيه وجاج حسب ما ذكره حسن أحمد محمود في ابن أخيه ليقوم بهذه المهمة، ثم عدل عن ذالك واختار تلميذه الورع والفقيه الحادق والحازم والصنهاجي الأصل "عبد الله بن ياسين"[29] وهنا تبرز حكمة الفقيه الصنهاجي وجاج بن الزلو اللمطي (نسبة لقبيلة لمطة الصنهاجية)، عندما اختار لهذه المهمة صنهاجي توفرت فيه شروط الداعية من جهة، ومن جهة أخرى أنّه ينتمي لقبيلة جزولة الصنهاجية.

3- دور الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي: استبشر أمير الملثمين يحي بن إبراهيم الجدالي خيرا بقدوم مهدي المرابطين عبد الله بن ياسين كما ذكره ابن أبي زرع معه إلى مضاربه الأصلية صنهاجة، فأبو عبد الله يدعى ياسين بن مكوك بن سير بن علي الصنهاجي، واختلف في إسم قبيلته فمنهم من عده جزولي كالبكري وابن أبي زرع، وابن خلدون، ولكن الدكتور حسن أحمد محمود رجح أنّه جدالي وذلك من خلال رواية البكري التي مفادها أنّ عبد الله ولد في قرية تماماناوت الواقعة في طرف صحراء مدينة غانة، أي في أحواز مدينة أودغشت، وهي مضارب قبيلة جدالة، ونظرا للتشابه بين جدالة وجزولة قد وقع تحريف في الكتابة[30] ومهما يكن فإن ابن ياسين سواء كان من جدالة أو جزولة فهو من مضارب الملثمين.

4- رباط عبد الله بن ياسين ودور الملثمين فيه: لما نزل ابن ياسين مع الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي لمضارب الملثمين، كانت قبيلة لمتونة المحطة الأولى لدعوته الدينية إلاّ أنّ الأخيرة صدت عنه فاضطر للنزول جنوبا عند قبيلة جدالة ومعه زعيمها يحي بن إبراهيم، فاستبشر الملثمون خيرا بعودة زعيمهم ومعه فقيها جاء ليزيل ظلام الجهل وينير عقولهم وأفئدتهم بنور الله، حتى سماه الأمير يحي بإمام الحق، استخدم ابن ياسين في بداية دعوته الطرق السلمية، فنال فيها المكانة والقدر الأعلى، وقصده الملثمون من كل فج، ووصلت مكانته في هذه الفترة حتى أصبح المشرف على بيت مال الملثمين من جدالة، ثم رأى ابن ياسين أمورا تتنافى عن تعاليم الإسلام وتعارضه، ولما حاول إصلاحها عارضه بعض وجهاء القوم لأنّه وضع حدا لنزواتهم فمثلا كان الرجل يتزوج أكثر من أربعة، والفساد مستشر في المجتمع، وقيمة الفرد تحددها الطبقية المعروفة في المجتمع، وممن ثار عليه حسب البكري الجوهر بن سكّم وبعض كبراء جدالة، فقاموا بعزله عن الرأي والمشورة، وقبضوا منه بيت مالهم، ونهبوا بيته وهدموه[31] ولكن أعتقد أنهم فشلوا إذ أنّ دعوة ابن ياسين الدينية قد غلبت دعوة العصبية القبيلية لدى كثير من شباب الملثمين، وسننتظرها عندما يؤسس الرباط.

في الوقت الذي ضاقت فيه الأرض على ابن ياسين من جراء ما قام به وجهاء الملثمين خاصة من جدالة، تضاربت الروايات التاريخية في الوجهة التي أرادها ابن ياسين، فرواية البكري مفادها أن الفقيه ابن ياسين رجع إلى شيخه وجاج بن الزلو في إقليم السوس، وأنّ الأخير أرسل لبعض شيوخ جدالة يعاتبهم، وأعلمهم بأنّه من خالف عبد الله بن ياسين قد فارق الجماعة وهدر دمه، وأمر ابن ياسين أن يعود لمضارب الملثمين، ومنهم من قال بأنّ ابن ياسين كاتب شيخه ولم يذهب إليه، وهناك من قال بأنّه نزل جنوبا وأسس الرباط مع الزعيم يحي بن إبراهيم[32]، وربما نجد أنّ ابن ياسين فكر في الرجوع لشيخه ولكنّ الأمير يحي رفض ذلك وأنزله لمنطقة معزولة تكون مكانا آمنا للعبادة والتقرب إلى الله، وهي المكان الذي ستنشأ منه دولة المرابطين.

اختلفت المصادر في المكان الذي اختاره ابن ياسين مع أمير الملثمين ليتخذاه رباطا لها، ولكن على الأرجح أنّه كان في جزيرة تيدرا بحوض نهر السنغال، في ركن الجنوب الغربي لموريتانيا الحالية، وهي الحدود الفاصلة بين مضارب جدالة والزنوج في بلاد السودان، وتعود أسباب إختياره لها هي أن تكون قريبة من مضارب قبيلة جدالة، ومن أراضي الوثنيين من الزنوج أين يمكن للمرابطين فتح باب الجهاد في سبيل الله لكل من رفض إعتناق الإسلام، بالإضافة إلى أنّ الجزيرة في الصيف يصبح السير إليها بالأقدام لأنّ منسوب الماء ينقص، وفي الشتاء يصلون إليها بالزوارق فقط، وكذلك فيها من الأشجار والصيد ما يكفي للقوت[33]

وهنا برز دور الملثمين من جديد ففكرة الرباط صنهاجية وإن كانت منتشرة في المشرق والمغرب الإسلاميين فإنّ هذه المضارب لم تعرفه بعد، وأفراده الذين التحقوا به وانظموا إليه وفق شروط وضوابط دقيقة هم من الملثمين أيضا، وهكذا تحول الفقيه عبد الله بن ياسين من داعية لتطبيق أحكام الشرع بالطرق السلمية إلى قائد ديني وفقيه منظر سياسي للمنهج الذي وجب أن تسير عليه الدعوة في الرباط، فأصبح هو الإمام وترك أمر تطبيق الأحكام (السياسة) إلى الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي وبعد وفاته اختار يحي بن عمر اللمتوني "أمير الحق" كما أطلق عليه ابن ياسين[34] وإن كان إختيارهه للمتوني بدلا من جدالي قد أثار عليه بعض الجداليين لكنه حسم الأمر بالحزم وبعد النظر، لأنّه وإن ساعدته جدالة في أمر الرباط وتكوين قوة المرابطين فإنّه اختار لمهمة رئاسة المرابطين الأصلح، ورأى في ضم لمتونة أكثر من ضرورة لكثرة عددهم وقوتهم وأموالهم[35] فهم كما عرفنا أكثر الملثمين عددا ومالا وقوة، ومضاربهم رئيسية وشاسعة، ووحدة الملثمين كانت غالبا في يد رؤساء قبائلهم كما عرفنا، وبهذا فقد تولى ابن ياسين أمور الدين وأحكامه، وولى يحي بن عمر أمور السياسة والجهاد، ولكن بقي هو المشرف العام على كل ما يقع في الرباط وللمرابطين.

5- المرابطون وتوحيد قبائل الملثمين: بدأ رباط ابن ياسين بسبعة نفر من جدالة، وبعد ثلاثة أشهر بدأ الناس ينظمون إليه[36] وذلك فق الشروط السابقة الذكر، وبعد أن كوّنهم روحيا وبدنيا وأصبح في نظرهم الإمام الآمر الناهي، خطب فيهم قائلا: "يا معشر المرابطين، إنّكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم..."[37] خرج المرابطون وهم حوالي ثلاثة آلاف من رباطهم بعد أن تدربوا على القتال ودخل الإسلام بشرائعه في قلوبهم، ومن حكمة ابن ياسين أنّه خاض بالملثمين أمر الجهاد ضد مملكة غانة وحقق الغاية إلاّ أنّه فقد أمير الحق من المرابطين يحي بن عمر اللمتوني الذي أستشهد وهو يحارب هذه المملكة، واختار ابن ياسين أخاه أبو بكر بن عمر اللمتوني على رأس المرابطين، ثم أعلن الجهاد ضد قبائل الملثمين التي أمهلها سبعة أيام للرجوع إلى أوامر الله، ولما أبت أعلن ضدها الجهاد، وكانت قبيلة جدالة قبلة للمرابطين الأولى خاصة وأنّها نقضت العهد مع

ابن ياسين عندما أستشهد أميرها يحي بن إبراهيم الجدالي، وكذلك لقرب مضاربها من نهر السنغال مستقر رباط ابن ياسين، ولما أذعنت بالقوة توجه صوب لمتونة التي أذعنت ولم تعاند وتقاوم كجارتها قبيلة جدالة، وبهذه الانتصارات الثلاث (إسقاط مملكة غانة، وانتصار على قبيلة جدالة، واستمالة قبيلة لمتونة) خضعت بقية قبائل الملثمين من مسوفة ولمطة وجزولة وغيرها[38] وإن كنّا نجد بعض الثورات تحدث في ديار الملثمين بين الفينة والأخرى.

لما وحّد ابن ياسين قبائل الملثمين وأنشأ كما ذكرنا معالم دولة المرابطين القوية والقائمة على أسس دينية متينة شعارها العدل والمساواة، ونبذ العصبية والنزاعات القبلية، بدأت الدعوات تتهاطل عليه من الشمال (المغرب الأقصى)، خاصة من سجلماسة ودرعة تدعوه للمجيء وتخليصهم من الفساد والظلم الذي يعيشونه، وهنا تبرز مكانة الملثمين خارج مضاربهم، وهذا يفتح المجال لدراسة أخرى إشكالاتها هي: هل فصّلت المصادر في الرسائل التي وصلت ابن ياسين من علماء وقبائل المغرب الأقصى والتي تدعوه لتخليصهم من ظلم واستبداد قبائل مغراوة وزناتة وبرغواطة؟ وهل حافظ المرابطون (الملثمون) على النهج الذي رسمه ابن ياسين لهم حتى بعد وفاته سنة 451هـ؟ وهل وقع الخلاف فعلا بين قادة الملثمين كأبو بكر بن عمر اللمتوني والمؤسس السياسي الحقيقي لدولة المرابطين يوسف بن تاشفين؟ وأسئلة أخرى تحتاج لمقالات متخصصة لتوضحها.

الخاتمة:

ساهمت الصحراء الكبرى في المشهد السياسي للغرب الإسلامي عموما خاصة عهد الدولة المرابطية، ولم تعق العوامل الطبيعية القاسية دور قبائل صنهاجة اللثام في تشييد صرح هذه الدولة، ويعتبر الفقيه عبد الله ابن ياسين الجزولي وزعماء صنهاجة الجنوب يحي بن إبراهيم الجدالي، ثم يحي بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر اللمتونيين، الأساس الأول لها، وبفضل الملثمين وأبنائهم، تشكل الرعيل الأول للدعوة فيّ رباط عبد الله بن ياسين، ثم تشكلت النواة الأولى الممهدة لقيام الدولة المرابطية والتي ستتوسع شمالا حتى تصل أرض الأندلس، وجنوبا حتى أراضي إفريقيا جنوب الصحراء، ورغم ذلك لم يغفل أمراء الدولة المرابطين فيما بعد عن أهمية الملثمين ومضاربهم، فهم يروهم عامل قوة ومدد للدولة كلما كانت في حاجة إليهم، واستقرار مضاربهم معناه نجاح دعوة المرابطين ودولتهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أمير المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني يقرر النزول للصحراء (كان حينها في المغرب الأقصى يواصل عملية الفتح) بنفسه ليفض النزاع الذي وقع بين بعض قبائل الملثمين، فيذكر ابن خلدون: "...وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم، ومنيع عددهم، فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة"[39] وأثناء نزول

أبو بكر بن عمر للصحراء خلّف القائد يوسف بن تاشفين لمواصلة الفتح في الشمال، ونزل هو جنوبا أين فضّ نزاع الملثمين ثم توجه لبلاد السودان كي يواصل حركة الجهاد في مضارب الوثنيين، ويؤمّن حدود الإمارة الجديدة من جهة الجنوب.

وفي الأخير يمكن القول أنّ حُرقة الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي اتجاه قومه، ونيته الصادقة في النهوض بهم وتوحيدهم على أساس ديني، كانت السبب الرئيس الذي أوصل حكمة العلماء والفقهاء (أبو عمران الفاسي، وجاج بن الزلو اللمطي) لإرسال الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي إلى مضارب قبائل الملثمين الصحراوية، ثم نتج عن هذا الحراك تحقق ما كان ينتظره الأمير يحي الجدالي بل وتعداه لتوحيد الجهة الغربية لبلاد المغرب وكذا بلاد السودان، وإعطاء نفس جديد للدولة الإسلامية في الأندلس.

الهوامش:

[1] للتوسع أكثر في مفهوم الصحراء وأنواعها أنظر: جمال الدين ركيبي، الجغرافيا الطبيعية، دار الهدى، ميلة، الجزائر، **1992**، ص**271-275**. مكتبة الأطلس (مكتبة الصغار)، أطلس العالم الكبير، بيروت، لبنان، **1999**، ص**260** وما بعدها.

[2] اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، **1983**، ص **13-14**. محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر برانت، الرباط، المملكة المغربية، **2006**، ص**40**.

[3] هناك اختلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ قيام الدولة المرابطية، ونحن هنا لا نريد الدخول في التفاصيل بمقدار ما نريد توضيح دور الصحراء وقبيلة صنهاجة الجنوب (الملثمون) في التمهيد لقيام الدولة المرابطية، وإن كنت أرجّح تاريخ **454**ه/**1062**م وذلك عندما تنازل أبو بكر بن عمر اللمتوني لابن عمه وقائده يوسف بن تاشفين لمواصلة الجهاد في بلاد المغرب الأقصى، وطلق يحي زوجته زينب النفزاوية ذات الجمال والذكاء وتزوجها يوسف بن تاشفين (المؤسس السياسي الحقيقي للدولة)، ونزل أمير المرابطين يحي صوب الجنوب لحل الخلاف الذي وقع بين بعض قبائل صنهاجة الجنوب ولمواصلة الجهاد ونشر الإسلام في بلاد السودان الغربي، بمعنى أني سأركز في مداخلتي على فترة الدعوة المرابطية (عهد الفقيه والداعية والمؤسس الروحي للدولة عبد الله بن ياسين، وأمراء الملثمين يحي بن إبراهيم الجدالي، ثم يحي بن عمر وأحوه أبو بكر بن عمر اللمتونيين). سآتي على المصادر والمراجع التي تناولت هذه الفترة في طيات هوامش هذه المداخلة وذلك تجنبا للتكرار.

[4] عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، **1421**ه/**2001**م، ج**201/6**.

[5] ابن خلدون، العبر، **201/6**. ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، **1972**، ص**119**.

[6] بعض المصادر (الطبري وابن الكلبي نقلا عن ابن خلدون) تذكر أن قبيلتي صنهاجة وكتامة البربريتين أصلهما حميري، وتوسع ابن أبي زرع في مسألة الأصل الحميري لصنهاجة وأورد روايات للمؤرخين قبله، منها ما ذكره محمد بن الحسن الهمداني في كتابه "الإكليل في الدولة الحميرية"، وأبو عبيدة عن ابن الكلبي، والزبير بن بكار، كما استشهد ابن أبي زرع بأبيات شعرية لأبي فارس عبد العزيز الملزوزي وأرجوزته المسماة "نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك" تأكد نسبهم الحميري، منها:

مرابطون أصلهم من حمير قد بعدت أنسابهم عن حمير.

إلى أن قال: وقد رأيت في كتاب النسب قولا به أعجز أهل الأدب.

بأنّ صنهاج سليل حمير وهو ابنه لصلبه لا العنصر.

أكرم به من نسب صريح فقله لا تخف من التصريح.

وللتوسع في أصلهم أنظر: ابن خلدون،العبر، ج**201/6** وما بعدها. مؤلف أندلسي (ق**8**ه)، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط**1**، المملكة المغربية، **1399**ه/**1979**م، ص**18**. ابن أبي زرع، الروض، ص **119-120**. أبو العباس شمس الدين ين خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، **1414**ه/**1994**م، **128/7**. حسن أحمد محمود، قيام دولة الرابطين، صفحات مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.س.ط، ص**39** وما بعدها.

[7] ابن أبي زرع، الروض، **119**.

[8] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح.محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، **2007**، **60/1**.

[9] للتوسع في أخبار صنهاجة الشمال وخبر الدولتين، أنظر: ابن خلدون، العبر، **201/6-216**. رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، **1977**. عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، **1426**هـ/**2005**م، **385/1-397**.

[10] ابن خلدون، تاريخ، ج**241/6**. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط**1**، مصر، **1980**، ص**294-295**.

[11] للتوسع في فروع صنهاجة أنظر: ابن خلدون، تاريخ، **241/6** وما بعدها. ابن أبي زرع، الروض، ص**120**. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**39** وما بعدها.

[12] ذكر ابن خلكان بأنّ يوسف بن تاشفين هو من سمّ أتباعه بالمرابطين. أمّا ابن أبي زرع فيرى بأن عبد الله بن ياسين هو الذي أطلق عليهم التسمية أنظر: ابن خلكان، الوفيات، **129/7**. ابن أبي زرع، الروض، ص**125**.

[13] حمدي عبد المنعم محمد، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية،مصر، **1997**،ص **37**

[14] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تح. وتقديم أدريان فان ليوفن، وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، **1992**، **865/2**.

[15] حاول الدكتور حسن أحمد محمود إجراء وجه المقارنة بين قبائل الملثمين الصنهاجية وقبائل الطوارق في الوقت المعاصر من خلال استفادته مما كتبه الرحالة الغربيون من أمثال بارث، دي فريه، وتوصل إلاّ أنّهم جزء من قبيلة صنهاجة، وأنّ السيادة فيهم كانت لقبيلة ترغة الفارة إلى الشرق بعدما كانت في لمتونة الصنهاجية (بعد سقوط المرابطين)، ثم تحول اللفظ عبر الزمن للتوارق بدلا من التوارغ أبناء ترغة. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**48-49**.

[16] ابن عبدون، رسالة في الحسبة، نقلا عن حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**51-52**.

[17] اين خلكان، الوفيات، **129/7**.حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**50**.

[18] ابن خلكان، الوفيات، ج**7**/ص**129**.

[19] مجهول، الحلل الموشية، ص**18-19**.

[20] ابن خلكان، الوفيات، **129/7**. الناصري السلاوي، الإستقصا، **177/1**.

[21] حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**50**.

[22] علي محمد الصلابي، فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط**1**، القاهرة، مصر، **1427**هـ/**2006**م، ص**10**.

[23]ابن خلكان، وفيات، **130/7**.

[24] ابن أبي زرع، الروض، ص**120**. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**44**.

[25] ابن أبي زرع، الروض، ص**120**. مجهول، الحلل الموشية، ص**17**. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص**45**، **46**.

[26] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 120-121. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص72-74. محمد محمود عبد الله بن بيّة، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، دار الأندلس الخضراء، جدة، دار ابن حزم، بيروت، 1421هـ/2000م، ص51-52.

[27] للتوسع في هذه الأحلاف وتدقيق تواريخ تولية يحي بن إبراهيم الجدالي إمارة قبائل صنهاجة أنظر: ابن أبي زرع، الروض، ص121-122. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص 101-103. بن بية، الأثر السياسي، ص51-52.

[28] حاولت اختصار هذه النقطة بما نحتاجه فقط في هذه المداخلة ولكن يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع التي اعتمدتها: البكري، المسالك، 858، 859. ابن أبي زرع، الروض، ص122-123. السلاوي، الاستقصا، 178/1، 179. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص 104 وما بعدها.

[29] البكري، مصدر سابق، ص859. ابن أبي زرع، الروض، ص123. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص 112-113.

[30] عبد الله بن ياسين خرج من مسقط رأسه وهو في سن صغيرة بحثا عن فرص للتعلم، فجاب مدن وحواضر المغرب الأقصى، وكانت له رحلة للأندلس في عصر ملوك الطوائف ومكث بها سبع سنوات، ثم رجع للمغرب ولزم الشيخ وجاج بن الزلو لغزارة علمه ولا ننسى أنّه تلميذ فقيه المالكية في القيروان أبو عمران الفاسي. البكري، المسالك والممالك، ص859. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص124. ابن خلدون، العبر، 243/6. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص113-117.

[31] للتوسع أكثر أنظر: البكري، مصدر سابق، ص165-166. ابن أبي زرع، القرطاس، ص125. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص 117، 18. بن بيّة، مرجع سابق، ص57-59.

[32] البكري، المسالك، 860/2. ابن أبي زرع، الروض، ص124. بن بيّة، الأثر السياسي، ص60. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص122-123.

[33] الربط كانت منتشرة في بلاد المغرب الإسلامي، وأول رباط بناه هرثمة بن أعين والي إفريقية عهد الخلافة العباسية، أمّا عن الإختلاف في مكان اختيار الرباط الذي بناه ابن ياسين، وتاريخ بنائه، وعوامل تفضيله وشروط الالتحاق به أنظر: ابن أبي زرع، الروض، ص124-125. محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، دار الوعي، ط1، 2009، ص14. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص123-127 بن بيّة، الأثر السياسي، ص60-64.

[34] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. مرا. إحسان عباس، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983، 12/4. بلغيث، دولة المرابطين، ص15-17.

[35] ابن أبي زرع، الروض، ص 124. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص140-145

[36] ابن أبي زرع، الروض، ص125. السلاوي، الإستقصا، 179/1.

[37] ابن أبي زرع، الروض، ص125.

[38] ابن أبي زرع، الروض، ص126-127. حسن أحمد محمود، مرجع سابق، ص145-153.

[39] ابن خلدون، العبر، 244/6.